الباب الخامس

مسيرة حياتي
مذكرات محمد يوسف الجندي
الجزء الأول

---

obeikan.com

obeikan.com

(١)

سنحاول، فى هذا الباب، التركيز على بعض الجوانب الإنسانية فى هذه المذكرات لأنها جوانب حية وحقيقية وقادرة على إرشادنا إلى كل ما هو نبيل وجميل فى تجربة اليسار المصرى، وليس معنى هذا أننا لا نؤمن بما فى المذكرات من حديث سياسى، ومن حديث عن السياسة، لكننا نعرف أن مثل هذا الحديث متاح بكثرة ووفرة فى أدبيات الحركة اليسارية، وأنه لا يمثل تجربة شخصية بقدر ما يمثل تجربة توجه وتاريخ هذا التوجه فى العمل الجاد.

والواقع أن محمد يوسف الجندى كان يصل إلى درجات تقترب من ذرا التعبير الأدبى حين كان يترك سياق الأحداث العامة ليتحدث عن سياق الأحداث الخاصة فى حياته، كما أنه كان يصل إلى قدرة عالية على الفهم والنقد فيما يتعلق بهذه التجربة الثرية.

(٢)

هذا هو حديث محمد يوسف الجندى عن خروجه من السجن فى ١٩٦٤، بعد غياب طويل عن زوجته وابنه، ونفاجأ، أو هو يتصور أننا سوف نفاجأ، حين نجد أن ابنه الذى لم يكن قد بلغ الخامسة قد عرفه:

«. . . خرجت إلى الشارع واستوقفت سيارة تاكسى من أمام السجن الحربى فى مصر الجديدة، وطلبت منه التوجه إلى شارع إسماعيل أباظة المتفرع من شارع قصر العينى، صعدت إلى شقتى فى المنزل رقم ١٢ أ بالدور الخامس، ضغطت جرس الباب، فتح يوسف، ولم يكن قد بلغ الخامسة بعد، وعرفنى وأخذته بين أحضانى، كانت زوجتى ليلى ترقد فى سريرها تعانى من «حصوة» فى الكلية، فوجئت بدخولى ورحبت بى».

«كنت مشتاقا بعد هذه الغيبة الطويلة، والحقيقة أننا لم نعش معا إلا سنة تقريبا، فقد تزوجنا فى ٨ يناير ١٩٥٨، وكانت الحملة ضد الشيوعيين، واتفقنا أن تعيش فى منزل والدها، ولم نكن نلتقى إلا فى فترات متباعدة، وبعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة».

«كنت مشتاقا أن أحيا حياة طبيعية، فى أسرة، مع زوجتى وابنى، وهو الأمر الذى افتقدته كثيرا، فحتى بعد زواجنا والفترة القصيرة التى عشناها معا، كان علىّ أن أعيش متخفيا، وباسم آخر».

«والتقيت باخوتى لأول مرة منذ فترة طويلة بشكل علنى، وقد عانوا، خصوصا أختى سعاد، فترة السجن والإضراب عن الطعام، والهرب، والتعذيب، وفرحوا أخيرا بخروجى، وأبدى الجميع استعدادهم لمساعدتى، وكان أخى أحمد يساعد زوجتى أثناء اعتقالى، لكنها كانت تشكو لى دائما فى خطاباتها إلىّ فى السجن من أن المساعدة لا تكفيها، وقد تضايق اخوتى أن بعض النقود التى كانت تأخذها من أخى أحمد لترسلها لى كأمانات فى السجن كانت لا ترسلها لى لحاجتها إليها فى المعيشة، وقد أزعجنى كثيرا الشعور بحاجتها للمال، ولكننى كنت أجد حرجا فى طلب المساعدة من أخى».

«ها قد خرجت أخيرا، وعلىّ أن أدبر حياتى، وكنت أمتلك ١٣ فدانا من الأرض الزراعية فى منطقة أبو الصير فى السنبلاوين، بعت منها ثلاثة أفدنة إلى أختى عايدة بعد بلوغى سن الرشد بقليل، وأعطيت ثمنها إلى الحزب (يقصد الحزب الشيوعى الذى كان ينتمى إليه)، وحاولت بيع الباقى فلم أنجح إلى أن قبض علىّ عام ١٩٤٩، وكان إيراد هذه الأفدنة لا يكفى وحده للإنفاق على حياتى اليومية، وكنت قد تركت أمورى المالية لأخى أحمد طوال فترة سجنى وهربى، وقد حدد لى مبلغا شهريا ٣٠ جنيها إلى أن أدبر أمورى، وقد توقفت عن أخذ هذا المبلغ منه بعد أن أسست «مكتب يوليو للترجمة والنشر والتوزيع»، وبدأ يدر عائدا كنت أحصل منه على هذه الجنيهات الثلاثين شهريا».

(٣)

ونتنقل مع محمد يوسف الجندى من غربة إلى غربة حتى نصل إلى غربته الفكرية فى أثناء عمله فى التنظيم الطليعى للاتحاد الاشتراكى، فنراه مضطرا إلى الاصطدام

بقيادات الاتحاد الاشتراكى المحلية ، وترينا المذكرات أن وجود اليساريين القدامى من أمثاله فى التنظيم الطليعى كان بمثابة أمر مقلق لقيادات عهد الثورة التقليدية ، وذلك بسبب رغبتهم فى السيطرة على التنظيم ورغبتهم فى إخضاع التنظيم للهياكل التى تعودوا عليها فى مثل هذا العمل السياسى ، على حين كان اليساريون الذين تربوا على غير هذا الفهم يعانون من سيطرة هذه الروح ، ويحاولون تغييرها فيصنفون فى فئة لابد للثورة من أن تتخلص منها ومن آرائها .

. . . .

. . . .

« . . . وكلفت بالعمل فى الوجه البحرى ، وتكونت لجنة للأقاليم ، وأصبحنا نتسلم النشرات السرية التى يصدرها التنظيم الطليعى » .

«وفى عملنا فى الوجه البحرى كنا نصطدم بقيادات الاتحاد الاشتراكى فى مختلف المحافظات الذين كانوا يقفون ضد مصالح الجماهير ، وكنا نكتب إلى قيادة التنظيم بمواقفنا وآرائنا وانتقاداتنا لهذه القيادات ، وكنا نشك أن بعض هذه القيادات قد تكون موجودة أيضا فى التنظيم الطليعى ، بل وفى قيادته» .

«وأبدينا رأينا فى تركيب التنظيم الطليعى واعتماده على فروع متعددة ، وطالبنا بتوحيد التنظيم على أساس جغرافى ، وكنا نطالب بقبول عضوية باقى أعضاء «حدتو» فى التنظيم الطليعى» .

«وأبلغنا بقرار بتوحيد التنظيم وطلب منا أن ننتظر حتى يتم الاتصال بنا ، وقد تم الاتصال بالبعض بالفعل ، ولكن الغالبية لم يتم الاتصال بها ، ومنهم زكى مراد وأنا» .

(٤)

وبعد عشر صفحات من مثل هذا الحديث يواجهنا محمد يوسف الجندى بحقيقة موقفه وموقف زملائه من العمل السياسى فى ظل الثورة ، وهو يعترف أنهم كانوا مؤمنين بضرورة استمرارهم فى العمل السياسى الذى بدأوه من قبل ، ومع هذا فقد استبعد من التنظيم الطليعى ، وهذه على ما نعرف أول مذكرات يعترف فيها صاحبها

باستبعاده المبكر من مثل هذا التنظيم بعد ممارسة النشاط فيه، لكنه لم يخسر كل شيء بسبب علاقته الجديدة بالثورة، ذلك أنه حقق بعض المكاسب من قبيل أن اسمه قد رفع من قائمة العزل السياسى (!!) وكأن هذا الرفع إنجاز، بينما العزل نفسه جزء من ظلم الثورة له ولأمثاله:

. . . .

. . . .

«كنا نرى مع عدد من رفاقنا أن الارتباط يجب أن يستمر، وإن لم يتخذ شكل حزب، ولم نفكر أبدا أن قرار حل الحزب يعنى أن نوقف نشاطنا السياسى الاشتراكى».

«استبعدت من التنظيم الطليعى مع أغلب رفاقنا، ولكن رفع العزل السياسى عنا، ومن الطريف أن قرار رفع العزل الذى نشر بالجريدة الرسمية نص عند ذكر اسمى بأننى مدير مكتب يوليو للترجمة الشيوعى».

«وأصبحت عضوا فى الاتحاد الاشتراكى فى عام ١٩٦٥، تقرر تشغيل الشيوعيين الذين أفرج عنهم، ودعيت مع عدد من زملائنا لمقابلة عبد القادر حاتم، ووزعنا على أعمال مختلفة، وعينت مع صنع الله إبراهيم للعمل فى وكالة أنباء الشرق الأوسط، وكانت هذه أول مرة أعمل فيها فى عمل رسمى».

(٥)

وفى خضم كل هذا يعبر صاحب هذه المذكرات عن الاغتراب السياسى الذى شعر به هو وزملاؤه، وهو يلخص موقف المنظمات الشيوعية من نظام الرئيس عبد الناصر، وهو يدلنا فى بساطة شديدة، وصراحة أشد على أنه هو وزملاءه أصبحوا كالغنائم التى وزعت على مراكز النفوذ والفكر فى نظام عبد الناصر، وعلى سبيل المثال فإنه يذكر أربعة أقطاب اختص كل منهم مجموعة من اليساريين، حتى وإن كان أغلب الأعضاء قد ارتبطوا بأحمد فؤاد:

« . . . كنا صادقين عندما قبلنا العمل داخل التنظيم الطليعى الذى أسسه جمال عبد

الناصر داخل الاتحاد الاشتراكى، الذى أشار إليه فى الميثاق باسم الجهاز السياسى، وكان كثيرون ممن اختيروا فى التنظيم، وأنا منهم، معزولين سياسيا، ولم يكونوا قد قُبلوا بعد أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى».

و«كان التنظيم الطليعى فى بداية تكوينه يضم مجموعات بقيادة أشخاص مقربين لجمال عبد الناصر، وقد ارتبط أغلب أعضاء «حدتو» الذين قبلوا بمجموعة أحمد فؤاد، وارتبط البعض الآخر بمجموعة خالد محيى الدين مثل رفعت السعيد، وارتبط البعض الآخر بمجموعة مجدى حسنين، مثل أحمد الرفاعى، وارتبط محمود العالم وحسن فؤاد بمجموعة سامى شرف».

(٦)

ويعترف محمد يوسف الجندى بمدى صعوبة العمل من خلال الاتحاد الاشتراكى، ويذكر صراحة أن القوى المعادية للاشتراكية داخل السلطة كانت أقوى من مجموعات الشيوعيين السابقين الذين عملوا من خلال التنظيم الطليعى، وأن ميدان هذه القوى لم يكن يقتصر على السلطة، وإنما كانت قوة هؤلاء تمتد إلى داخل التنظيم الطليعى.

ونحن نفهم بالطبع ما كان محمد يوسف الجندى يجهله أو ما يتجاهله من أن نظام عبد الناصر لم يكن على استعداد على الإطلاق لأن يعطى له ولأقرانه اليد العليا فى تنظيمات السياسة، وإلا كان هذا اعترافا منه بالعجز والفشل، وربما كان السياسيون التقليديون الأكثر وعيا بعبد الناصر وبالتاريخ يعرفون أن مجابهتهم العنيفة لهؤلاء الشيوعيين كفيلة بارتفاع أسهمهم عند عبد الناصر، وعند النظام !! وهذا هو ما حدث بالفعل:

«وعندما قررنا الانضمام إلى التنظيم الطليعى لم يكن فى نيتنا أبدا التخلى عن مبادئنا وأفكارنا، ففى داخل التنظيم كنا ندافع عن آرائنا ومواقفنا، وكنا نناضل ضد العناصر التى كنا نعتقد أنها تعمل ضد مصالح الكادحين الذين كنا نعبر عن مصالحهم، وكنت أعمل فى الأقاليم ودخلنا فى معركة ضد أمين محافظة الغربية فى الاتحاد الاشتراكى الذى نعتقد أنه كان أيضا عضوا فى التنظيم الطليعى، وكنا نستفيد من خبرتنا السابقة فى العمل فى الأقاليم».

«وكنا نجوب المدن والقرى وندافع عن مواقفنا التى كانت تتفق مع المواقف التى كان يعلنها جمال عبد الناصر فى خطبه، وفى الميثاق وغيره من المطبوعات، وكنا نعتبر أن هناك قوى فى السلطة تعادى الاشتراكية، وتعادى الشيوعيين علينا أن نكشفها ونقف ضدها، لكن هذه القوى كانت أقوى منا داخل السلطة وتنظيماتها، ومنها التنظيم الطليعى».

(٧)

وتأتى بعد هذا فقرة يتحدث فيها عن صور الوظائف التى تقلدها بعض الشيوعيين ضمن نظام عبد الناصر فى مرحلته الأخيرة، وهى فقرة لا تخلو من التشويش والأخطاء التاريخية، وبخاصة فى تعاقب التواريخ والأحداث، وإن لم تخل من كثير من الصواب فى وقائعها، لكن العجيب أن هذه الفقرة تأتى مباشرة عقب حديث محمد يوسف الجندى عن القوى الأخرى التى قد يفهم منها القارئ أنها قوى غير شيوعية، فإذا هى قوى شيوعية على حد ما تعيه ذاكرة القراء العاديين، وإذا بصاحب المذكرات فى نهاية مذكراته يبدو وكأنه المعادل الموضوعى لجماعات التكفير (فى السياق الدينى) فيتحدث عن الشيوعيين الآخرين بأسلوب هو أقرب إلى الحديث عن اللاشيوعيين:

« . . . وقد حافظ جمال عبد الناصر على علاقاته بهذه القوى وشغلت مواقع (مهمة) رغم أننا لم نكن نشغل أى مواقع، بل كما سبق أن ذكرت كنا معزولين عن الاتحاد الاشتراكى، وبعد ذلك شغل بعض زملائنا بعض المواقع مثل محمود أمين العالم الذى أصبح رئيسا لدار النشر الحكومية الأساسية التى أصبحت تسمى بعد ذلك «الهيئة المصرية العامة للكتاب»، ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لمؤسسة أخبار اليوم».

«وكانت بعض العناصر من المجموعة الأخرى التى كانت تقف ضد عبد الناصر أثناء وجودها فى السجن مثل إسماعيل صبرى، وفؤاد مرسى التى ارتبطت بمحمد حسنين هيكل شغلت أيضا مواقع (مهمة)».

« وعندما صدر قرار بإعادة الشيوعيين فى الصحف المختلفة، وكان لطفى الخولى قريبا من حسنين هيكل فكلف بتأسيس مجلة «الطليعة» فى إطار مؤسسة الأهرام،

وجمع فيها عددا من الشيوعيين المصريين، وقد اختار أغلب العناصر من المجموعة الأخرى، ولم يعمل معه من مجموعتنا إلا رفعت السعيد».

(٨)

وهو يتحدث بحيادية لا يشوبها توتر ولا أسى عن محاولات فاشلة لإلحاقه هو وإبراهيم عبد الحليم بالعمل فى الأهرام، وهو يتعجب من موقف هيكل منه رغم صداقته الوثيقة بأخيه أحمد، ويبدو محمد الجندى من السذاجة بحيث لا يعرف طبيعة مثل هذه الصداقات، ولا طبيعة الانتهازيين والمظهريين:

«وقد حاول سامى شرف أن يعمل إبراهيم عبد الحليم فى الأهرام، وحدد له موعدا مع محمد حسنين هيكل الذى لم يقبل عمله هناك، وكذلك الأمر بالنسبة لى، فقد حاول ذلك جمال العطيفى الذى كان يحاول مساعدتى ويبذل فى ذلك جهدا، لكنه فشل ولم يقبل هيكل عملى فى الأهرام رغم علاقة الصداقة الوثيقة التى كانت تربط بينه وبين أخى أحمد».

«وأذكر أننى التقيت بلطفى الخولى بناء على اقتراح من عصمت سيف الدولة لكى أعمل فى الطليعة، لكنه أفهمنى أن مثل ذلك القرار لابد أن يوافق عليه هيكل الذى قد يقبل التعاون مع عناصر كانت له علاقة بها ويأسرها مثل محمد سيد أحمد، ونبيل الهلالى، ولكنه لن يقبلنى».

(٩)

وننتقل إلى حديث محمد يوسف الجندى عن ممارسته العمل الصحفى من دون أن نخضع للترتيب الزمنى مفضلين أن نبدأ بحديثه عن الفترة التى مارس فيها الصحافة الحقيقية فى مؤسسة «أخبار اليوم».

وهو يذكر للأستاذ إحسان عبد القدوس فضله، بما جبل عليه من توازن بين الفكر والعمل الصحفى، مما جعله يحرص على أن يساعده على أن يكتسب معرفة حقيقية بالعمل الصحفى كى يكون مفيدا لمؤسسة أخبار اليوم فى عمله الجديد كمراسل لها فى الاتحاد السوفيتى، وهو يلخص التوجهات التى قاده إليها كبار رجال الصحافة القائمين

بقيادة وإدارة الإصدارات الصحفية فى ذلك الوقت، ويتحدث عن ممارسته للصحافة الحقيقية بعد أن أصبح مندوبا لأخبار اليوم فى الاتحاد السوفيتى :

« . . . أصبح العمل الصحفى أكثر إثارة من عمل الترجمة الذى كنت أقوم به طول الوقت، وقمت بزيارة إلى القاهرة وقابلت إحسان عبد القدوس وقال لى : إننى يجب أن أتعلم الصحافة، وانتقد بعض التقارير والأخبار التى أرسلها، وقال : إننى سياسى ولست صحفيا بعد، ورتب لى لقاءات مع مسئولى المجلات والصحف والأقسام التى تتبع أخبار اليوم، فقابلت موسى صبرى، ومحسن محمد اللذين طلبا منى أن أهتم بكل الأخبار وليس بالأخبار السياسية وحدها، وأن أهتم بأخبار المصريين فى الاتحاد السوفيتى، والتقيت بأنيس منصور وكان مسئولا عن آخر ساعة، وطلب منى أخبار الناس العاديين، والأخبار الطبية، وقابلت سعيد سنبل، وإبراهيم سعدة، ومحمد تبارك الذى طلب منى ألا أرسل أخبارا أكاديمية، وإنما الأخبار البسيطة والمثيرة».

(١٠)

ومن حسن الحظ أن هذا الحماس للصحافة سرعان ما ظهر فى سلوك محمد يوسف الجندى : وأدائه، مما أعطاه دفعة من الثقة بالنفس فى ذلك المجتمع الجديد، وهو يضرب المثل بنجاحه فى السبق إلى نشر خبر زيارة الزعيم بريجنيف لباريس قبل أن يعلن الخبر رسميا بثمان وأربعين ساعة :

« . . . وقد نشرت أخبار اليوم يوم ٢٣ يونيو خبرا بعنوان «٤٨ ساعة بعد أخبار اليوم»، جاء فيه : «انفردت أخبار اليوم يوم السبت الماضى بنشر خبر زيارة بريجينيف لباريس، بعد انتهاء زيارته لواشنطن. استطاع مراسل أخبار اليوم فى موسكو أن يسبق جميع الصحف العالمية ووكالات الأنباء بهذا الخبر الذى لم يذع رسميا إلا بعد ٤٨ ساعة من نشره فى أخبار اليوم».

«وقد سررت من نشر هذه الملاحظة، وكانت أخبار اليوم فى يوم السبت ١٦ يونيو قد نشرت الخبر الرئيسى فى صفحتها الأولى نقلا عن محمد الجندى ووكالات الأنباء بالعنوان التالى :

«لماذا قدم بريجنيف موعد زيارته لأمريكا . . الزعيم السوفيتي يزور باريس بعد واشنطن»، وكانت الصحيفة بعد أن أوردت الأخبار الجارية قد نقلت ما أرسلته من أن «الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف قدم موعد زيارته لواشنطن إلى يوم السبت بدلا من يوم الاثنين (بعد غد) حتى يتمكن من السفر يوم ٢٥ يونيو إلى باريس لمدة يومين يجرى خلالهما مباحثات مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو ويعود إلى موسكو يوم ٢٧ يونيو».

«وهكذا كان عملى الصحفى يتطلب منى أن أتعقب الأخبار وتفاصيلها من مختلف المصادر، وكنت أعرف أن أى سبق للجريدة يعتبر عملا (مهما)، وقد بدأت تعلم صياغة الأخبار وتعقبها من عملى فى وكالة أنباء الشرق الأوسط، ثم كان عملى فى أخبار اليوم هو مدرستى الثانية».

. . . .

. . . .

«وقد ساعدنى إحسان عبد القدوس كثيرا، وساعدتنى أيضا اللقاءات التى نظمها لى مع كبار المسئولين فى المؤسسة».

. . . .

ربما تجدر الإشارة هنا إلى أن أحمد الجندى شقيق صاحب المذكرات كان زوجًا لأخت الأستاذ إحسان عبد القدوس.

(١١)

ومع كل هذا فإن محمد يوسف الجندى حريص على ذكر مثل صغير للطرائف الموحية بما كان عمله الصحفى يدفعه إليه من حرص على أدائه، وما كان يتسبب فيه من مشكلات طارئة مع البيروقراطية وذوى النفوذ:

«. . . أثناء زيارة لجمال عبد الناصر لموسكو، وكان الوفد المرافق له مقيما فى فندق سوفيتسكايا فى الطريق المسمى «لينينجراد سكايا»، وكنت أذهب إلى هناك لمعرفة الأخبار، وفى إحدى المرات كان علىّ أن أبعث برسالة إلى الجريدة، ولا أذكر الآن إن

كانت للمصور أو للأخبار، وكنت أريد أن تنشر فى الوقت المناسب، فأخذت إحدى السيارات التى خصصتها وزارة الخارجية للوفد، واتفقت مع السائق أن يأخذنى إلى المطار، وجريت إلى الباب المؤدى إلى الطائرة، ومن العجيب أنه لم يمنعنى أحد، وتوجهت إلى الطائرة المصرية وأعطيت المضيف مظروفا موجها إلى الجريدة، ثم خرجت كما أتيت وعدت إلى الفندق، وكانت مغامرة».

«وعندما عدت وجدت بعض الموظفين المرافقين لجمال عبد الناصر يوبخوننى لأننى أخذت السيارة المخصصة لوفد رئاسة الجمهورية، ولم تقنعهم الأسباب التى ذكرتها لهم، فقد كانوا فى حاجة للسيارة للمشتريات، وبعد وقت عادت السيارة بهم محملة بالبضائع».

«أخذت أنوع المادة التى أرسلها، وكان أغلبها ينشر فى مختلف صحف ومجلات أخبار اليوم (الأخبار - أخبار اليوم - آخر ساعة). كانت هناك مواد أساسية، وأخرى ثقافية، وأخبار علمية وطبية، وبعض الأخبار الخفيفة والطرائف، وكنت أجد متعة فى نشر ما أرسله، وبدأت تتم اتصالات من القاهرة، اتصل بى مرة كمال عبد الرءوف وطلب إلى جانب الأخبار أن أكتب موضوعات ومقالات، فكتبت عن زيارة الوفد الليبى وغيرها من الموضوعات كانت تنشر بالكامل، وكان يثنى عليها».

(١٢)

وفيما قبل هذا يتحدث محمد يوسف الجندى باعتزاز عن عمله فى وكالة أنباء الشرق الأوسط معتبرا هذا العمل بمثابة المدرسة الأولى التى تعلم فيها الصحافة :

«عينت مع صنع الله فى قسم مراقبة الأخبار، وكان آخر مرتب لى فى الوكالة ٤٥ جنيها، ظللت أجمع بين عملى فى الوكالة وعملى فى الدار، وساعدنى ذلك فى تحسين وضعى المالى، وتعرفت بمجتمع مختلف، ومارست العمل الصحفى بشكل منتظم، ولأول مرة أجرب الخضوع لرؤساء فى العمل، والتدرج الوظيفى، ودخلت انتخابات الاتحاد الاشتراكى فى الوكالة، ولكننى لم أنجح، وكان ذلك درسا لى، وهو أن الخطاب الانتخابى فى مجتمع الوكالة يختلف عنه بين الرفاق الذين عملت معهم حتى الآن فى العمل السرى».

«كانت الوكالة هى المدرسة الأولى لى فى العمل الصحفى. صحيح أننى عملت فى بودابست فى مجلة اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى، وذلك فى عام ١٩٥٣، ولكننى أعتقد أن المدرسة الحقيقية كانت فى «أ. ش. أ».

«وفى عام ١٩٦٩ قدمت طلبا لنقابة الصحفيين لقبولى عضوا، قبلت عضوا عاملا ولم أمر بمرحلة التمرين».

(١٣)

ونأتى إلى نوع خفيف من الاغتراب الفكرى يتمثل فى اختلاف وجهات النظر (الأكاديمية) حول الحركة اليسارية التى شارك محمد يوسف الجندى نفسه فيها، ونحن نراه يتحدث عن مناقشات فكرية دارت بينه وبين بعض المفكرين السوفيت حول الحركة الشيوعية المصرية، فيبدو أنه لا يستكين للمنهج الجاهز، أو الرؤية المسبقة، وكيف له أن يقبل هذا وقد عاش التجربة بنفسه، لكنه لم يكن متحمسا لأن يصوغ الحديث عنها بطريقة مكتوبة، حتى إنه يصل إلى الاعتراف بعدم تحمسه لإتمام الدراسة لدرجة الدكتوراه، على نحو ما كان فاقدا للحماس من قبل تجاه درجة الليسانس، وهو يعترف أن الطريق كان مفتوحا أمامه لنيل درجة الدكتوراه بعدما استمع أستاذ التاريخ له، وشجعه على تسجيل آرائه بكل ما تعنيه من مكاسب فى بلاد كمصر حتى فى العمل السياسى، لكنه تقاعس عن تحقيق مثل هذا الإنجاز:

«. . . وقلت إنه رغم الانقسامات والصراعات التى أضعفت دور الشيوعيين بلاشك، إلا أنه وجد دائما داخل الحركة تيار ثورى هو الذى حدد الخطوط الأساسية لدور الشيوعيين فى الحركة الوطنية، والسياسة المصرية، وتيار انتهازى كان يمثل عقبة أمام هذا الدور».

«وهذا المفهوم هو الذى قدمته فى دراسة لى عن تاريخ الحركة الشيوعية فى الأربعينيات».

. . . .

. . . .

ربما نتوقف هنا لنسأل عن مصير هذه الدراسة، وعن رأى أصحاب أدبيات الحركة اليسارية فيها:

. . . .

. . . .

«وقد قدمت هذه الدراسة لعدد كبير ينتمون للحزب والجامعة ومعهد الاستشراق، فلقيت تقديرا كبيرا، واقترح عليّ سيرانيان أستاذ التاريخ فى معهد الاستشراق أن أقدم الدراسة للحصول على درجة الدكتوراه، ولكننى لم أهتم بذلك، خصوصا أن الأمر كان يحتاج لإعطاء بعض الوقت والتفرغ لهذا الموضوع».

«ولم أجد أن الحصول على درجة الدكتوراه يستحق ذلك، ومن المحتمل أن أكون قد أخطأت فى هذا التقدير، مع ملاحظة أن هذه الدرجات لها تقييم كبير فى بلادنا، وتساعد فى حل أمور أخرى كثيرة، بما فى ذلك العمل السياسى».

«وكانت هذه ثانى مرة أتخذ فيها هذا الموقف من الدرجات العلمية، المرة الأولى عندما كان علىّ أن أحصل على الليسانس عام ١٩٤٧، فقد كان تركيزى على الكفاح العملى يجعلنى أعطى أهمية ضئيلة للحصول على الليسانس واجتياز الامتحان الذى لم أؤده وأحصل على ليسانس الحقوق إلا بعد ذلك فى عام ١٩٦٥، والمرة الثانية كانت فى عدم اهتمامى بعرض سيرانيان».

(١٤)

ونأتى إلى الحديث عن اغتراب محمد يوسف الجندى على مستوى العائلة، وهو يتحدث عن بدء الفتور ثم التوتر فى علاقته بزوجته الأولى التى كانت قد لحقت به فى موسكو:

«. . . وصلت الأسرة فى سبتمبر، وذهبت لاستقبالهم فى مطار شيريميتفا، وكنت فى غاية القلق، وانتابنى شعور غريب، فمن شدة رغبتى فى لقائهم كنت أخشى أن يحدث شىء للطائرة فلا يصلوا، وعندما وصلوا قابلتهم بفرحة شديدة. كانت نادية قد كبرت وأصبح سنها ثمانية شهور، ويوسف حوالى (عشر) سنوات، وكنت فى غاية الشوق إليهما وإلى زوجتى، وكنت أخطط لإقامة سعيدة معهم، وكنت أخطط، كما قلت فى السابق، أن تساعدنى زوجتى، وأن تكسر فترة الوحدة التى عشتها قبل وصولهم».

«رتبنا ليوسف دخول المدرسة العربية الملحقة بالسفارة، أما نادية فقد رتبنا لها أن تلتحق بالحضانة لمدة خمسة أيام، و(نتسلمها) فى آخر الأسبوع».

«تعلم يوسف اللغة الروسية بسرعة، وكذلك نادية التى كانت تعيش مع الأطفال الروس، وكانت أول كلمات تنطقها باللغة الروسية، واستطاعت ليلى بعد ذلك أن تتعلم بعض الكلمات الروسية تتفاهم بها».

«كانت علاقتنا فى مصر بعد خروجى من السجن قد بدأت تتوتر، وبدا أن طباعنا وطريقة معيشتنا وطموحاتنا تختلف، ولم أنجح ولم تنجح فى تحقيق التوافق أو تقارب الأهداف. لم يعد يربطنا التعاون أو الترابط الأسرى، ومع ذلك كان هناك رباط وثيق بيننا هو يوسف ونادية».

«وكانت نادية تنمو أمام عينى. كنت أحبها حبا شديدا. كنت أتابع نموها، وأعمل بالمنزل وأتابع شئونها كلها، وأنتظر بفارغ الصبر حضورها آخر الأسبوع من بيت الحضانة».

(١٥)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن الظروف التى دفعته إلى أن يشرع فى زواجه الثانى مقدما المبررات له التى دفعته إلى أن يتم هذا الزواج، وهو لا يتحدث عن حتمية تتويج الحب أو الشبق أو الغرام بالزواج، وإنما هو حريص فى المقام الأول على أن يبدو وكأنه يعتذر لأسرته الأولى عن ارتباطه الثانى، ولهذا نراه يفيض فى شرح مبررات انفصاله عن زوجته الأولى:

«. . . سبق أن تحدثت عن الظروف غير العادية التى تم فيها زواجى الأول، والحياة السرية، وانقطاعى الطويل عن الحياة الإنسانية، والعلاقات البشرية العادية بسبب ظروف السجن، والهرب، والهجرة، والعودة السرية التى استمرت ما يقرب من عشر سنوات، وتحدثت أيضا عن ظروف زوجتى الأولى التى كانت تريد الهرب من قسوة أبيها والاستقلال عنه، وتحدثت عن الطريقة التى تزوجت بها، وإخفاء شخصيتى الحقيقية ووضعى عن أبيها وأسرتها، وكان ذلك بتوصية من ليلى زوجتى الأولى، وعندما عرف وضعى واسمى رحب بالزواج، رغم أنه تم فى البداية بشكل تآمرى».

«وبعد زواجنا لم نعش بشكل طبيعى، فقد كنت أحيا حياة شبه سرية بسبب الحكم الصادر ضدى بخمس سنوات، واستمر هذا الوضع لمدة سنة كاملة ثم أصبحت حياة اختفاء كامل بعد حملة يناير ١٩٥٩، فاتفقنا من أجل الأمان أن تترك المنزل وتعيش فى منزل والدها، ولا نلتقى إلا مرة فى الأسبوع بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة، ثم اعتقلت فى ١٢ مايو ١٩٥٩، وبقيت فى المعتقل خمس سنوات، وكانت فى هذه الفترة تعمل مدرسة فى مدرسة إعدادية، وكانت تكتب لى عن الظروف المعيشية والاقتصادية الصعبة، وكونت صداقات مع بعض زوجات المعتقلين مثل زوجة عبد الستار الطويلة، وتصادق يوسف مع ابنه الذى كان فى مثل سنه، ومع خطيبة محمد عمارة الذى كان محكوما عليه بالسجن، وكان معى فى الواحات، فكانت تأتى معها لزيارته وتعرف أخبارى، ولم يكن لى، باعتبارى معتقلا، حق الزيارة، بخلاف محمد الذى كان مسجونا، وكنت أعرف من محمد عمارة أخبارها وأخبار يوسف، وكان لها أصدقاء مثل صلاح جاهين، وسيد مكاوى، وسيد حجاب وغيرهم».

«ورغم الظروف غير العادية التى تزوجنا فيها وعشناها معا، فقد أحسست فى المعتقل بأن لى زوجة وأسرة أفتقدها وأحبها، وأريد الخروج من السجن لبناء حياة أسرية طبيعية لم أتمتع بها بعد، وكانت تراودنى الأحلام والآمال بقيام هذه الأسرة».

«وبعد الإفراج عنى بدأت لأول مرة بعد أكثر من خمسة عشر عاما أحاول الحياة بشكل طبيعى باسمى الحقيقى، وعلاقات علنية بالمجتمع والناس، وبدأت أرتب حياتى الجديدة».

(١٦)

ثم يعاود محمد يوسف الجندى الحديث عن هذه الفكرة بأسلوب آخر يعبر عن شعوره العميق بالاغتراب على الرغم من وجوده فى وطنه، وبين أسرته، وهو يحاول أن يوازن فى أحكامه بين عيوبه هو نفسه وعيوب الطرف الآخر:

«. . . كنت متشوقا لحياة أسرية هادئة يسودها التعاون، وأن أشترك مع زوجتى فى بناء هذا الأسرة من جميع النواحى، وصدمت بأن ما أملت فيه لم يتحقق».

«هذا لا يعنى أننى أخلو من السلبيات، وأنه لا مسئولية علىّ فى فشلنا للحفاظ على هذه الأسرة، خصوصا بعد أن رزقنا فى يناير ١٩٦٩ بابنة جميلة ووديعة سميناها «نادية»، ولكننا لم نستطع رغم المحاولات الإبقاء على استمرار تلك الأسرة، مع ما يترتب على ذلك من آثار سلبية على الأبناء».

«بعد مولد نادية بأسبوع سافرت إلى موسكو وانتظرت حتى سبتمبر لمجىء الأسرة، وكنت أنتظر وصولها، وتوقعت فى موسكو أن نعيش حياة فيها نوع من التعاون والاستقرار، ونعالج السلبيات التى كنت أعانيها فى مصر».

(١٧)

وحين يتحدث محمد يوسف الجندى عن طريقة تعرفه على زوجته الثانية الروسية، نراه حريصا على أن يروى لنا كيف تعرف على أسرتها، وهو يسهب فى ذكر محاسنها، ويعدد المزايا التى كانت تتمتع بها هى وأسرتها:

«. . . وتعرفنا بعدد من المبعوثين، وبعدد من الروسيات، تميزت من بينهن فتاة أنهت الجامعة وأصبحت مهندسة كيماوية، وكانت فتاة شديدة الحيوية والنشاط. كانت شديدة الحب للأطفال، وتعلقت بها نادية ابنتى التى كانت فى البداية لا تتكلم إلا الروسية التى تعلمتها فى دار الحضانة، وزرنا أسرتها وتعرفنا على أبيها وأمها وأخيها، وعرفنا معها المسارح، والباليه الروسى، وعلمتنا التزحلق على الجليد، وأصبحنا نحب الشتاء الروسى، وموسكو جميلة فى الشتاء رغم أن درجة الحرارة تصل إلى ٣٠ تحت الصفر وأقل من ذلك، وأحيانا تصل إلى ٤٠ تحت الصفر».

«وأصبحنا أصدقاء لهذه الفتاة ولأسرتها، نزورها وتزورنا، وكان تسكن فى حى يدعى «اسماعيلوفا» تحيطه الغابات، وكانت تقطن فى الدور الخامس فى شقة من ثلاث حجرات ومطبخ وحمام، أو حجرتان وصالة حسب العرف المصرى، وتقول إنها فى طفولتها كانت تسكن فى شقة أخرى مع عدد من الأسر الأخرى، وكانت مدينة موسكو مغلقة على سكانها، ولا يسجل بها قاطنون جدد إلا مَنْ يتزوجون من أهلها، أو يعملون بها، وكان سكان موسكو حوالى ١٠ ملايين نسمة، وحجمها أكبر من

القاهرة، ولولا هذه القيود المفروضة على المسجلين بموسكو لضاقت بسكانها، وكانت هناك عملية بناء مستمرة فى موسكو وضواحيها، ولكل أسرة تاريخ معين، وشروط معينة لتنتقل إلى شقة مستقلة فى ارتباط ببناء مساكن جديدة، وبهذه الطريقة قضوا على أزمة السكن، فلا أحد بلا سكن، ولا أحد ينام على الأرصفة كما نجد فى البلاد الأخرى حتى أكثرها تقدما مثل لندن، وباريس، ونيويورك وغيرها».

«كان كل أفراد أسرة نادية أو ناديجدا يعملون، الأب والأم يعملان فى المصانع، والأخ يعمل سائقا، ونادية تعمل فى إحدى المؤسسات، وكانت الوحيدة فى الأسرة التى حصلت على شهادة جامعية، والروس يطلقون على مَنْ تسمى «ناديجدا» اسم نادية، وينطقونه بشكل مختلف بعض الشيء عنا، فيطيلون نطق المقطع الأول «ناد» ويخطفون المقطع الثانى، وبفضل هذه الفتاة تعرفنا جيدا على موسكو وحياتها الثقافية (المسارح - الباليهات - المتاحف.. إلخ)، وتعرفنا على جمالها الطبيعى (غاباتها - أنهارها - بحيراتها.. إلخ).

«وكانت الأسرة رغم بساطتها ومحدودية دخلها شديدة الكرم، إذا ذهبنا لزيارتها أفرغوا الثلاجة وقدموا كل ما عندهم، ويكونون سعداء بوجودنا، ويأكلون ويشربون معنا وهم يلقون كلمات التحية والترحيب والتمنيات الطيبة على عادة الروس».

....

....

(١٨)

ويتحدث محمد يوسف الجندى فى حياء عن الظروف التى ساعدت على تطور معرفته بزوجته الثانية:

«توثقت العلاقات بينى وبين نادية، وطلبت منى أن أساعدها فى تعلم اللغة الفرنسية، وكانت تأتى إلينا أسبوعيا فى مواعيد منتظمة، أما علاقتى بليلى فأخذت تزداد فتورا، ووصلنا إلى وضع توقفت فيه علاقاتنا، وسافرت إلى مصر وتركت لى نادية، وكانت فى الرابعة من عمرها، ويوسف كان فى الثالثة عشرة من عمره».

«وأثناء وجود ليلى (أى زوجته الأولى) فى القاهرة مرضت ابنتى نادية بالأنفلونزا وارتفعت حرارتها إلى الأربعين، فاستعنت بالصديقة الروسية نادية فلم تتركها وقدمت لها كل أنواع العلاج الشعبى الذى يتقنه الروس، واستمرت ثلاثة أيام إلى أن شفيت تماما».

(١٩)

ويقدم محمد يوسف الجندى حديثا مجملا عن العوائق التى قامت فى سبيل إتمامه زواجه من زوجته الثانية، دون أن يشغل نفسه بعقد المقارنات بين حالتهما وبين الظروف المشابهة فى أية دولة غربية يمكن فيها إتمام مثل هذا الاقتران بسهولة ويسر:

«. . . كل هذه العوامل جعلتنى أفترق عن زوجتى الأولى ليلى وأرتبط بنادية الروسية، واتخذت الخطوات للارتباط بها بالزواج، وهو الأمر الذى لاقيت فى سبيله صعوبات كثيرة، سواء من البيروقراطية السوفيتية، أو أجهزة الأمن المصرية، فالإدارة السوفيتية كانت تتطلب للموافقة على الزواج موافقة دولة الزوج، أى المباحث العامة التى كانت ترفض الموافقة، وتوصلت فى وزارة الخارجية إلى معرفة التأشيرة التى برروا بها رفضهم «أن المصريين الذين كانوا متزوجين من مصريات وكان لهم منهن أولاد لا يسمح لهم بالزواج من بنات الكتلة الشرقية خاصة، حفاظا على روابط الأسرة!».

«ولكن كل هذه العراقيل، سواء من البيروقراطية السوفيتية، أو تعنت أجهزة المباحث لم تمنعنا من الزواج الفعلى، ولم تستطع هذه العراقيل غير المفهومة وغير الإنسانية أن تقف فى طريقه، وأثمر هذا الزواج الابنة «أناستاسيا» فى ٤ فبراير ١٩٧٤».

«واحتاج التغلب على العقبات البيروقراطية والبوليسية إلى حوالى تسع سنوات حتى أمكن لزوجتى نادية وابنتى أناستاسيا أن تحصلا على تأشيرة للحضور إلى مصر».

(٢٠)

ثم يقدم محمد يوسف الجندى بعض عبارات المديح المتزن فى وصف سجايا زوجته الثانية التى جعلت اقترانه بها يحس بالتوافق الفكرى والنفسى، وكأنما عوضته غربته فى روسيا بهذا الاقتران الجميل:

«. . . وقد وجدت هذه الإنسانة بزواجى الثانى، فنحن نلتقى تماما فى فهمنا للحياة، وتحديد أهدافنا منها، ونحن لا نبحث عن المادة والغنى، ورغم أنها لا تشتغل بالسياسة ولا تهتم بها إلا أنها يمكن أن تعيش وتتكيف فى أى ظروف، وهى تحب الناس، وتحب مساعدتهم حسب قدراتها فى غير إسراف، وهى حريصة على بيتها، وتعمل على جعله مكانا مريحا جميلا، مدبرة وتستطيع توفير الحياة الكريمة بأى مبلغ مهما كان قليلا، وتتفهم الظروف المادية الصعبة التى نعيشها، وتقدر وتتفهم التزاماتى العامة التى تأخذ الجزء الأكبر من دخلنا الضئيل أصلا».

«وهى مع ذلك ليست مستكينة، بل تجد حلولا لكثير من المشاكل الحياتية».

«وهى تحب العمل، وتعمل طول اليوم، إذا طلبتها لعمل معين خارج المنزل قامت به على أحسن وجه، وقد جربتها فى أثناء المعارض فكان إنتاجها يساوى عددا من العاملين مجتمعين من حيث السرعة والإتقان».

«ليست لها متطلبات خاصة إلا أن يكون بيتها وزوجها وابنتها فى أحسن حال، وهى تعمل فى البيت مادمت لا أطلبها للعمل فى الخارج، ومع ذلك فيومها كله عمل مستمر، وتحل المشاكل المعيشية بأقل التكاليف، وقد أكبرت فيها موقفها من أمها التى تعدت الثمانين، فرغم أنها تعيش بعيدة عنها فى موسكو، فهى تفكر فيها وتعمل على مساعدتها، وتشعر بالتزامها تجاهها، وتعمل على حل مشاكلها وهى بعيدة عنها، حاولت مرات إقناعها لكى تعيش معنا فكانت الأم ترفض لأنها تريد أن تموت فى وطنها».

«كل هذا وغيره من الصفات الجميلة قوى من روابطنا وحبنا، كل يوم أكثر من اليوم الذى سبقه».

(٢١)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن حضور زوجته الروسية وابنتهما إلى مصر، وهو يكرر التعبير عن إحساسه بالقهر تجاه تأخر موافقة مباحث أمن الدولة على زواجه، كما يكرر الانتقاد والتعجب من كل ما كان يمثله هذا من تعقيد إجراءات قدوم زوجته إلى مصر، ومن تأخير لم شمل أسرته الجديدة (١):

«. . . بعد عشر سنوات من الزواج نجحت زوجتى نادية وابنتى أناستاسيا فى الحضور إلى مصر من موسكو، وقد تطلب ذلك جهودا مضنية تخللتها اعتقالات وسجن أعوام ١٩٧٧، و١٩٧٩، و١٩٨١، وكانت التعقيدات التى تعترض تحقيق ذلك تأتى من مباحث أمن الدولة فى مصر، ومن الإجراءات البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى».

«وكانت زوجتى تراسلنى فى هذه الفترة وتبعث إلىّ بصور ابنتى وأخبارها وتطورها، والمشاكل التى تواجههما بعيدا عن الزوج والأب، وكيف حرصت على الاهتمام بتربيتها وقد أدخلتها دار الحضانة، ثم روضة أطفال، ثم المدرسة الداخلية، وكانت تأخذها فى نهاية الجمعة حتى صباح الاثنين وترسلها فى الصيف إلى مخيمات الأطفال، أو تذهب معها إلى أحد المصايف السوفيتية التى كان يمتلئ بها الاتحاد السوفيتى، وأدخلتها مدرسة تتعلم فيها اللغة الإنجليزية كلغة إضافية، وكانت تبعث لى بكل أخبارها، وبالتطور الذى تمر به فى مراحل عمرها، وكانت زوجتى تعمل فى إحدى المؤسسات السوفيتية».

(٢٢)

ويمضى صاحب المذكرات فى هذا الحديث الكاشف عن دور البيروقراطية فى حياة المواطنين الشخصية.

«. . . وكان اسم زوجتى قبل الزواج ناديجدا ميخائيلوفنا كورونكوفا، فغيرت اسم العائلة إلى الجندى فأصبح اسمها ناديجدا ميخايلوفنا الجندى، ويطلق الروس عادة اسم نادية اختصارا على مَنْ يسمون ناديجدا، رغم أنهم ينطقونه بطريقة مختلفة فيركزون على المقطع الأول، ولهذا لم يكن اسمها غريبا علينا هنا فى مصر».

«وحسب إجراءات الجوازات السوفيتية يتمتع السوفيت بياسبور داخلى، وهو يوازى البطاقة الشخصية عندنا، وجواز سفر خارجى يمكنها من السفر إلى البلاد المدونة عليه، ولم يكن من السهل لأى شخص الحصول على جواز سفر خارجى إلا إذا كان مسافرا لسبب معلوم، ولم يكن ليعطى للكافة، ومنذ عام ١٩٧٨ حصلت نادية على جواز سفر خارجى للحاق بأبى ابنتها، أما إجراءات الزواج الرسمى فكانت

معقدة، فكانت الأنظمة البيروقراطية فى الاتحاد السوفيتى تتطلب الحصول على موافقة بلد الزوج، وكنت قد عقدت زواجا إسلاميا فى جامع موسكو، ولكن هذا لا يكفى، فلا يعترف إلا بالزواج المدنى أمام موثق الزواج، وموافقة بلد الزوج تعنى موافقة مباحث أمن الدولة، وكانت هنا المشكلة».

(٢٣)

ويفيض محمد يوسف الجندى فى الحديث عن تفصيلات حياة زوجته الروسية فى القاهرة، وتأقلمها مع الحياة فى القاهرة بكل ما فيها من مصاعب أو اختلافات عن الجو الذى عاشت فيه طيلة حياتها من قبل:

«وصلت نادية وأناستاسيا إلى القاهرة فى يناير ١٩٨٣، وقدتهما إلى الشقة التمليك التى كنت قد استلمتها حديثا فى مدينة نصر، وكنت قد انتقلت إلى هذه الشقة عام ١٩٨٢، وكان علىّ أن أفرشها، وكانت عندى ثلاجة إيديال اشتريتها بعد الانفصال عن زوجتى الأولى، وساعدنى أخى أحمد فى شراء غرفة نوم، واستبدلت بعض الأثاث المستعمل من شحاتة هارون مقابل سجادتين صينيتين كنت قد اشتريتهما من موسكو، واشتريت من أختى عايدة أثاث مطبخ كانت تريد التخلص منه، وهكذا جاءت نادية وأناستاسيا على أثاث متواضع، كان علينا أن نستكمله بالتدريج، وكنت قد أعددت لهما عند حضورهما دجاجة وأرزا، وبدأت نادية تتولى أمور المنزل، سواء من حيث إعداد الطعام، أو تنظيف المنزل، وفوجئت أنها تمتلك كفاءات كبيرة فى هذا المجال، ولم ألاحظ ذلك فى بيتها فى موسكو حيث كانت تعمل طول اليوم، وكانت أمها تتولى هذه المهمة».

«يضاف إلى ذلك أنها لم تكن تعرف كلمة واحدة باللغة العربية، لكنها كانت تحرص على النزول لشراء احتياجاتنا اليومية، وتستخدم فى ذلك الإشارة، وهناك جمعية تعاونية أمام المنزل وأرادت أن تشترى لحما ووجدت طابورا أمام الجمعية فوقفت فى الطابور انتظارا لدورها فجاءها العامل فى المحل وسألها عما تريد فأشارت له إلى اللحم فأحضر لها ما تريده، فلم ير من قبل سيدة أجنبية تقف فى الطابور».

«وبدأت هى وأناستاسيا تحاولان تعلم اللغة العربية، وأحضرنا كراسة تدونان فيها الكلمات وجمل المحادثة الضرورية».

«وعند حضورها صدمتها قلة الأماكن الخضراء فى الشوارع بالمقارنة مع الاتحاد السوفيتى، وصدمتها أيضا القمامة أمام المنازل، وفى الشوارع، لكنها أخذت تتأقلم شيئا فشيئا».

. . . .

. . . .

(٢٤)

نأتى أخيراً إلى حديث صاحب المذكرات عن غربة الوطن، حيث يتحدث محمد يوسف الجندى عن مواجهته الواقع فى موسكو بعدما كان فى ذهنه من توقعات مثالية عن مجتمع موسكو، وهو يلخص ما رآه من أزمات فى بعض المواد التموينية، ومن مظاهر الفساد والبيروقراطية فى الإدارة الحكومية، ثم يتحدث عن بعض مشكلات الحياة الاجتماعية وكثرة الإدمان وما يسببه من مشكلات زوجية:

«. . . كانت لدى فكرة مثالية عن الاتحاد السوفيتى، وكنت قد عشت فى المجر من قبل ورأيت الجوانب الإيجابية والجوانب السلبية للنظام هناك، وكنت أتصور الاتحاد السوفيتى فى مستوى أفضل من المجر، لكن بعض الأشياء الصغيرة أثارت دهشتى».

«فمثلا فى الأيام الأولى أردت شراء «بشكير»، فكان علىّ أن أبحث فى جميع المحلات، وكان الرد: لا يوجد، أو لا يتواجد، وسألت بعد ذلك بعض الأصدقاء فقيل لى إن هذا يحدث كثيرا، إذ تختفى سلعة ما من السوق ثم تتواجد بعد فترة، وهذا ما حدث فعلا بعد ذلك، وعجبت أن يخلو هذا البلد الكبير العظيم، الدولة العظمى الثانية فى العالم من بشكير، ومع ذلك لم يكن هناك بيت يخلو منه، والحقيقة أنه كان ينزل إلى الأسواق فى فترات مختلفة مثل باقى السلع فيتخاطفه الناس».

«ثم بدأت أصطدم بعد ذلك بالكثير من مظاهر البيروقراطية والفساد (الرشوة)، وكان لدينا موظف إدارى فى دار التقدم إذا أعطيته الهدايا، وهى فى العادة زجاجات من الكحوليات، فإنه يحل كل المشاكل المستعصية، وبدون ذلك يتكاسل ولا يفعل شيئا، وسمعت بعد ذلك من الطلبة الذين يدرسون هناك أن زجاجات الفودكا أو الويسكى هى الطريقة السحرية لحل كل مشاكلهم مع موظفى وزارة التربية والتعليم».

«ومن المظاهر السلبية التى رأيتها، العدد الكبير من السكارى فى الشوارع، وفى المواصلات، وسمعت أن بعضهم ينام فى الشوارع، ويتجمد فى كثير من الأحيان من برد الشتاء القارس».

«وكنت أسمع عن المشكلات الأسرية الكثيرة التى يسببها إدمان الخمر عند الرجال الذين يذهب بعضهم إلى العمل فى الصباح وهم سكارى، وفضلا عن أن ذلك كان يؤدى إلى فشل كثير من الزيجات، فإنه كان يؤثر أيضا بالسلب على الإنتاج».

«وأحيانا عندما أقف فى الطوابير أمام المحال لشراء حاجياتى ألاحظ اثنين من الرجال يتفقان على شراء زجاجة فودكا مناصفة».

(٢٥)

ويتحدث محمد يوسف الجندى بالقدر ذاته من النقد الخفيف عن معاناة المرأة فى مجتمع الاتحاد السوفيتى:

«وأحيانا قليلة كنت أجد امرأة أو أكثر فى حالة سكر، ولكنها كانت حالات نادرة بالمقارنة بالرجال».

«ومن الملاحظات الطريفة التى لاحظتها، وهو الانطباع بأن النساء هن وحدهن اللاتى يعملن. ففى المحال، وفى الإدارات المختلفة، وفى وسائل النقل، وفى تنظيف الشوارع أجد النساء يعملن، ونادرا ما أجد الرجال، وكان يقال لى إن الرجال فى المصانع، وفى الأعمال الصعبة، أما الخدمات فتقوم بها النساء فى الغالب، لكننى وجدت نساء يقمن بأعمال صعبة مثل عمليات البناء».

«ومن السلبيات أيضا أننى كنت أجد بعض الأماكن الطبيعية الجميلة تكاد تخلو تقريبا من الخدمات، فلا توجد مثلا كازينوهات، أو مقاه على الشاطئ، أو فى الغابات لخدمة الزائرين، والسبب أن الدولة كانت تقوم بكل شىء، ولم تكن إمكانيات الدولة ولا أولوياتها تتسع لمثل هذه المشاكل الصغيرة (المهمة)».

(٢٦)

ومن الجدير بالذكر أن محمد يوسف الجندى كان حريصا على أن يسجل باعتزاز إيجابيات الحياة فى الاتحاد السوفيتى، على الرغم من انتقاداته لبعض مظاهرها، وهو يعدد مزايا الحياة فى الاتحاد السوفيتى فيتحدث عن التأمين الاجتماعى، والصحى، ورخص الحياة فى المصيف، والمواصلات، والتعليم وكافة الخدمات، وهو يلخص الفارق فى الحياة بين موسكو وغيرها من العواصم الأوروبية فى الدول الرأسمالية :

«ورغم هذه السلبيات فقد كنت متأكدا أن النظام هناك أفضل من النظام عندنا، وأفضل أيضا من البلاد الرأسمالية الأخرى، وكنت قد عشت فى باريس، وزرت لندن وغيرهما من العواصم الرأسمالية. كانت الميزة الأساسية التى كان يشعر بها الإنسان فى موسكو وفى البلاد الاشتراكية الأخرى، هى الشعور بالأمان، فعند المرض هناك علاج مجانى وعام وجيد، وهو الأمر الذى كنت أفتقده فى بلادنا حيث الطب تجارة، وقد يشكو المواطن السوفيتى العادى أنه لا يستطيع مغادرة البلاد عندما يريد، ولكنه يجد العمل دائما، ويضمن معاشه عندما يبلغ الستين للرجال، أو الخامسة والخمسين للنساء، ويجد دائما مأوى بسعر رمزى ولا يهدد أبدا بأن ينام فى الشارع، ويستطيع أن يمضى إجازته فى مكان جميل على الشاطئ، أو فى الجبال بين الخضرة والغابات الجميلة بسعر رخيص. المواصلات لا تكلفه إلا أجرا زهيدا. بيوت الحضانة ورياض الأطفال منتشرة فى كل مكان، ويستطيع بسهولة أن يبعث بأطفاله إليها ويأخذهم آخر اليوم أو آخر الأسبوع، وهذا ما فعلناه مع نادية ابنتى، حيث كانت تمكث طوال الأسبوع مع الأطفال فى بيت الحضانة ونأخذها فى آخر الأسبوع، وأرسلنا يوسف فى الصيف إلى مخيم للرواد خارج موسكو فعاد بانطباعات رائعة، وكون صداقات، وتعلم التحدث باللغة الروسية، وذهب مرة أخرى إلى مخيم أرتيك مع محمد ابن أختى، الذى حضر إليه من القاهرة بدعوة منا، ومازالت لديهما أجمل الانطباعات عن هذا المخيم».

(٢٧)

وينظر محمد يوسف الجندى إلى الأمور الحياتية نظرة منصفة للتجربة السوفيتية :

«كانت أسعار الحاجيات الأساسية رخيصة للغاية : المواصلات ٥ كوبيك. . السكن بأجر رمزى. . الكتب بأقل الأسعار، وكذلك الأسطوانات، فكنت تستطيع شراء

أسطوانة لبيتهوفن أو باخ أو تشايكوفسكى أو غيرهم من كبار الموسيقيين العالميين بأرخص الأثمان. التذكرة فى مسرح البولشوى، حيث تقدم أرقى الباليهات العالمية، سعرها فى مقدور أى شخص، وكذلك الحال فى غيره من المسارح».

«تتحدث الصحف عندنا كثيرا عن الطوابير أمام المحال، ورغم الجانب السلبى لهذه الطوابير إلا أنها تعكس من ناحية أخرى ارتفاع القدرة الشرائية لدى الجماهير، فلم تكن السلع حكرا على مَنْ يقدر على الشراء. كان الكثير يشكو بأن بعض سلع الترف الموجودة فى الغرب غير موجودة فى موسكو أو غيرها من المدن السوفيتية، ولكن المواد والحاجيات الأساسية كانت موجودة دائما، وبأرخص الأسعار، وكان أى عامل يستطيع شراءها، وكانت مساحة السلع التى تتوافر تتزايد باستمرار بما فى ذلك سلع تنافس مثيلاتها الغربية مثل أجهزة الراديو، والسيارات والأدوات الكهربائية وغيرها من السلع».

. . . .

. . . .

وهو فى نهاية الأمر يبلور رأيه هذا فى عبارة واحدة تبدو موحية على الرغم من أنها تقليدية تماما:

«لم تكن تجد فى موسكو أو غيرها من الأماكن فى الاتحاد السوفيتى تلك الفروق الشاسعة فى مستوى المعيشة».

(٢٨)

وتدلنا انطباعات محمد يوسف الجندى عن زيارته الأولى للولايات المتحدة على الحس الصادق فى تصوير الفارق الكبير بين نسق الحياة فى الولايات المتحدة والعالم كله، ومع أن بعضا من أنماط الحياة الأمريكية قد قدر له أن يسود حياتنا المصرية الآن مثل عمل التليفزيون بلا انقطاع، فأنت تستطيع أن تتخيل الأثر الذى أحدثته هذه الحياة على صاحبها الذى عاش فى الاتحاد السوفيتى وفى مصر من قبل حياة يسودها نمط مختلف من الإحساس بالحرية والإنسانية، ووطأة الحكومة، وطبيعة السوق، وهو يعجب

لشرب الأمريكيين للبن فى كل وجبة، كما يعجب لمهاجمة الرئيس الأمريكيين فى تليفزيون بلاده:

«. . . استلمت مفتاح حجرتى فى الفندق، وظللت لفترة طويلة أشاهد التليفزيون الذى يعمل بلا انقطاع، وكان البرنامج يدور حول نيكسون والووترجيت والانتقادات المستمرة، وكان أمرا لم أعتده أن يهاجم رئيس الدولة فى التليفزيون. نمت فى ساعة متأخرة، وفى الصباح نزلت إلى حمام السباحة حيث قمت برياضتى المعتادة، ونزلت إلى الحمام حيث سبحت بعض الوقت ثم أخذت دشا ولبست ملابسى ونزلت لتناول الإفطار، وكانت المائدة مفتوحة أختار منها ما أريد، وبعد الإفطار قمت باتصالات تليفونية».

. . . .

«. . . واشتريت بعض الحاجيات البسيطة، وبعض الهدايا. اشتريت لنفسى قميصين بأكمام قصيرة، القميص بدولار واحد، مازلت أستعملهما حتى الآن رغم مضى أكثر من عشرين عاما على شرائهما».

«كنت أتناول طعامى فى مطاعم الخدمة الذاتية، وعجبت أن كثيرا من الأمريكيين يتناولون اللبن كشراب مع الغداء أو العشاء».

. . . .

«أعجبتنى واشنطن ووجدتها مدينة خفيفة الظل».

(٢٩)

أما حديث محمد يوسف الجندى عن عمله فى هلسنكى (عاصمة فنلندا) وعن انطباعاته عنها فيحفل بما يسارع به من إثبات شعوره بوفرة البضائع، وسهولة الحياة وراحتها، لكنه مع ذلك حريص على الإشارة إلى افتقار هذه الحياة إلى النكهة، وهو يعقد مقارنات متميزة يجعل لموسكو فيها مكان التفوق:

«. . . كان العمل روتينيا، وكنت أذهب للمكتب في الصباح في وسط البلد وأمضى الوقت في العمل حتى الخامسة بعد الظهر، وكنت أمضى الوقت بعد العمل في المنزل، أو أذهب إلى مكان قريب أمارس الساونا والسباحة، وأحيانا أذهب إلى السينما أو أتجول في المدينة، وعلى خلاف الوضع في موسكو كانت المحال مليئة بالبضائع من كل الأنواع، وفي عودتي إلى المنزل كنت أشترى كل ما كنت أريده من أنواع الطعام الذي لم أكن أجده في موسكو، وأذكر في زيارة لعبد الملك خليل أن طلب منى أن نذهب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام الجنسية التي كانت تمتلئ بها دور السينما، وهي من الأفلام التي لم تكن تتوافر لنا رؤيتها سواء في الاتحاد السوفيتي، أو مصر، وفي أثناء مشاهدة الفيلم تحدث معي ساخرا للمقارنة بين الحياة في فنلندا والحياة في الاتحاد السوفيتي، وكان يرى أن الحياة في فنلندا أفضل بكثير، فمستوى المعيشة أفضل، والتقدم أفضل».

«وكانت الحياة في هلسنكي سهلة ومريحة، وكل شيء متوافر، لكنها كانت تفتقر إلى «نكهة» و«حياة» أتمتع بها في موسكو، والحياة بين الروس، ففي موسكو تشعر بالناس، وبنبض الحياة، وبالمشاعر الإنسانية التي كانت هلسنكي تفتقر إليها، وفي هلسنكي كنت أحس أنني معزول عن العالم، وهو الأمر الذي لم أشعر به أبدا في موسكو، ففيها كنت على ارتباط بالحياة السياسية والثقافية، وكنت أحس فيها أنني قريب من مصر، ولم تنقطع عني أخبارهم، ولم يكن ذلك يرجع فقط إلى معرفتي باللغة، ولكن إلى أن المجتمع في موسكو كان أكثر ثراء من جميع النواحي».

«وفي مرة وحيدة في أثناء عملي في هلسنكي عقد مؤتمر دولي، وجاء وفد من مصر اشترك فيه أحمد بهاء الدين، وتحسين بشير، وبخلاف ذلك لم أكن ألقى مصريين أو عربا خلاف مَنْ كانوا يعملون معي في المجلس».

(٣٠)

ثم يعود محمد يوسف الجندي إلى الحديث عن بعض أوجه أفضلية هلسنكي على موسكو، ذاكرا بكل تواضع (وإن لم يقترن هذا التواضع بالامتنان الواجب لهلسنكي) كيف هيأت له الظروف اليسيرة شراء سيارة انتقل بها إلى موسكو ثم جاء بها إلى مصر !!:

«ومع ذلك فمن الناحية المادية كان وضعى أفضل كثيرا مما كنت فيه فى موسكو، بحيث إننى فى مدة عملى التى لم تكن تزيد على ثلاثة شهور استطعت ادخار مبلغ استطعت منه شراء سيارة مستعملة عند عودتى إلى موسكو، وذلك حين وجدت فى البريد عرضا من أحد الدبلوماسيين الآسيويين يعرض فيه بيع سيارة بمبلغ كنت قد استطعت ادخاره فى تلك الفترة، وكانت سيارة فولكس «حمراء»، ولم أكن فى حاجة إلى سيارة فى موسكو، ولكن زوجتى كانت تلح علىّ دائما بأن أشترى سيارة، ولم أكن قد تعلمت قيادة السيارات، فاتفقت مع سائق روسى يعمل عند أحد الدبلوماسيين فى السفارة المصرية لتعليمى القيادة، وعند سفرى إلى القاهرة كان هو الذى قاد السيارة إلى مرسيليا وقام بإجراءات شحنها إلى الإسكندرية».

(٣١)

ونأتى إلى حديث محمد يوسف الجندى عن الفترة التى عاشها فى براغ فنجده يشعر بالراحة من الاغتراب بعض الشيء، وهو يتحدث عن سهولة اللغة فى تلك المدينة وقربها من اللغة الروسية، وهو يرى فى العامل اللغوى انتصارا على مشكلات العامل النفسى المتمثل فى العلاقة المتوترة بين الروس والتشيك بسبب أحداث ١٩٦٨:

«... كانت الظروف فى براغ ملائمة لزوجتى لأنها كانت قريبة من موسكو وتستطيع الاتصال بوالدتها بسهولة أكبر، فضلا عن أنها لم تكن تشعر بالغربة لأنها فى المجلة كانت تلتقى بالعديد من الروس الذين يعملون هناك وتصادقت عليهم».

«ورغم أن التشيك لم يكونوا يحبون الروس (بسبب التدخل الذى قام به حلف وارسو عام ١٩٦٨ أثناء ما عرف «ربيع براغ» الذى قاده دوبتشيك قائد الحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكى فى ذلك الوقت)، فإن لغتهم قريبة من اللغة الروسية التى لم يكن من الصعب التعامل بها فى المحلات التجارية».

«وأمكننا أن نحضر ابنتنا أناستاسيا من موسكو إلى براغ لوجود مدرسة روسية هناك، بعد أن أنهت السنة الدراسية فى موسكو فى يونيو، وذهبت إلى موسكو والتقيت بابنتى وسافرنا بالقطار إلى براغ، وفى محطة براغ كانت زوجتى تنتظرها،

فعندما نزلت من القطار جرت إليها فى انفعال وتعثرت ووقعت على الأرض وقامت وتعانقتا فى شوق. كنا قد انتقلنا للسكن فى حى يسمى «بوهنيتسا»، أدخلنا ابنتى المدرسة الروسية وكونت هناك صداقات مع طالبات روس وتشيك».

«كانت الحياة سهلة فى براغ. كانت تأتى للمنزل فى الثامنة إلا الربع صباحا سيارة مكيروباص تابعة للمجلة تنقلنى إلى العمل، وكانت زوجتى تساعدنى عند الضرورة فى الأعمال الإدارية، وكانت تساعدنى فى تحرير المواد التى أحتاج لكتابتها باللغة الروسية».

(٣٢)

وسوف نكون مقصرين فى حق القارئ والتجارب الإنسانية إذا ما أهملنا الحديث عن تجربة المرض التى اجتازها محمد يوسف الجندى وهو مقيم فى العاصمة التشيكوسلوفاكية براغ، وكيف مر بمراحل متعددة من المرض بدءا من نزيف المخ، ثم اكتشاف السكر، ثم احتباس البول، ثم عملية البروستاتا، ثم العلاج الطبيعى، ثم العلاج فى مصحة، ومع أنه يحكى تجربته بمكانيكية شديدة فإنه يتحدث بامتنان وتقدير للنظام الطبى ونظام التمريض، وإتاحة العلاج المجانى، مما كان العهد به قائما فى هذه الدول الاشتراكية التى حافظت على البعد الاجتماعى فى سياساتها الخدمية لفترة طويلة:

«. . . وسافرت إلى القاهرة أكثر من مرة، وفى المرة الأخيرة، وكان فاروق ثابت يوصلنى بسيارته إلى المطار، صدمتنا سيارة مسرعة من الخلف وارتطم رأسى بمقدمة السيارة، ويبدو أننى أصبت بغيبوبة للحظة ثم شعرت بألم فى بطنى، وواصلت السفر إلى براغ وأنا متعب، وفى اليوم الثانى ذهبت للطبيب الذى حولنى للمستشفى ومررت بعدد من الفحوص، وعند خروجى من المستشفى قال الطبيب إننى أصبت بارتجاج فى المخ ويجب أن أحذر القراءة الكثيرة، أو الإفراط فى مشاهدة التليفزيون، أو الإجهاد فى العمل الفكرى لفترة من الوقت، ويبدو أننى لم أستطع مراعاة ذلك، فاستمر عملى، وبعد حوالى شهر شعرت بصداع مستمر فى رأسى وأخذت الحالة تسوء، وكان يسكن فى نفس المنزل فى الطابق العلوى أحد الزملاء الفلسطينيين من الأردن فى

المجلة، وهو طبيب، كشف علىّ واتصل بالمستشفى الذى أرسل سيارة إسعاف أخذتنى إلى هناك، وبعد الفحوص أخبرنى الطبيب أن هناك نزيفا فى المخ، وأنه يجب إجراء عملية جراحية فورية».

«فى اليوم الثانى قامت إحدى الممرضات بحلاقة شعرى، وقام أحد كبار أطباء المخ بإجراء العملية. بعد إجراء العملية كنت فى غرفة الإنعاش وعندما أفقت من البنج سألت الممرضة التى كانت تسهر إلى جانبى: لماذا لم تجر العملية؟ قالت: إن العملية أجريت».

«جاءت زوجتى لزيارتى. بقيت بعض الوقت فى غرفة الإنعاش وقال الطبيب إنهم اكتشفوا أن السكر مرتفع، وأخذت الممرضات يحقننى بالأنسولين ومنعوا عنى السكريات التى أعشقها، ثم نقلت من الإنعاش إلى غرفة مع أحد الفلسطينيين، وبدأت أشعر باحتباس فى البول، وقال الطبيب إنه نتيجة تضخم فى البروستاتا، وكنت أعانى من التضخم منذ فترة، ولكن لم أعان من احتباس البول إلا بعد العملية، فقد وضعوا لى قسطرة للبول قبل العملية ونزعتها الممرضة بعد العملية، ويبدو أنها نزعتها دون استشارة الطبيب، فقد سمعته بعد ذلك يتشاجر معها ويعنفها، وبعد ذلك أصبحت أتبول بصعوبة، ففى الليل كنت أذهب إلى دورة المياه كل ١٠ دقائق أو ١٥ دقيقة، وينزل قليل من البول».

«فى الصباح شكوت للطبيب الذى استدعى إخصائى المسالك البولية الذى قال إنه سيبذل محاولات باستعمال بعض الأدوية إن لم تنجح فسيضطر لإجراء عملية جراحية لاستئصال الجزء المتضخم من البروستاتا، وأجرى لى أشعة فوق صوتية تبين منها تضخم البروستاتا، وقال لى بعدها: إنه من الضرورى إجراء عملية جراحية، سألته إن كان ممكنا عملها بالليزر؟ فقال: إنه لابد من قطع الجزء المتضخم، وقال: إنه لا يستطيع إجراءها فورا لأننى خارج من عملية جراحية فى المخ، ويجب أن ننتظر حوالى شهر أو أكثر، وأنه من الضرورى تركيب القسطرة مرة أخرى، وهو الأمر الذى لم أكن أحبه».

«بعد العملية الأولى كانت تأتى لى إحدى الممرضات لتقوم معى ببعض التمرينات الرياضية الملائمة، وكان ذلك يتم يوميا حتى بعد أن قمت بعملية البروستاتا، ثم توقفت بحجة أن الطبيب أمر بوقف هذه التمرينات بعد العملية، ولكنى ما أن شعرت بأننى

أستطيع القيام من سريرى حتى أخذت أنزل إلى الحديقة وأقوم بالتمرينات التى اعتدت القيام بها يوميا، ولم أتوقف عنها أبدا».

«وفى المستشفى كانوا يحرصون على نظافة المرضى، فالاستحمام يومى، فكانت الممرضة تأتى لغسيلى كل يوم حتى بعد العملية مباشرة، وكان التمريض جيدا فإذا ضغطت على الجرس بجانبى تأتى الممرضة فورا».

«مكثت فى المستشفى حوالى ثلاثة شهور، وعند خروجى من المستشفى أوصانى الطبيب أن أقلل من البروتين الحيوانى، ومن السكريات، ورغم حقن الأنسولين التى أعطيت لى بعد العملية الأولى فقد انخفض السكر فى الدم، ولم أحتج إلى أى أدوية للسكر بعد ذلك، وكان يرتفع أحيانا إذا لم أراع التقليل من السكريات ثم يعود طبيعيا إذا امتنعت أو قللت منها، وقللت من اللحوم والأسماك ولم أعد أتناولها إلا مرتين فى الأسبوع، وأمارس الرياضة يوميا وأحاول أن أحيا حياة صحية، وبذلك أحافظ على قدرة لا بأس بها على العمل».

«وبناء على توصية الطبيب لم أذهب إلى العمل مباشرة، بل رتبت الذهاب إلى مصحة تدعى «ماريانسكى لازنى» تعتمد على الأساليب الطبيعية فى العلاج (الجو - المياه المعدنية - الحمامات المعدنية - التدليك - الرياضة - الغذاء.. إلخ)».

«عدت إلى العمل وكنت قد فقدت من وزنى ١٠ كيلوجرامات».

«بقيت فى المصحة ٢٤ يوما، وكان ذلك فى شهر يوليو ١٩٨٩، وفى سبتمبر كانت إجازتى السنوية، واخترنا مع زوجتى أن نمضيها فى كوبا بدعوة من الحزب الشيوعى الكوبى».

....

هكذا تنقل محمد يوسف الجندى في ربوع العالم. لكنه ظل فى كل أحواله مغتربًا تحت الأرض... وفوق الأرض.

***